العلوم المعرفية و أثرها في النقد النصي في المغرب الأقصى

د. محمد بلقاسم (جامعة تلمسان).

أ. محمد بكـــاي (جامعة تلمسان)

تمهيد:

يتميز المشهد النقدي في المغرب الأقصى بحضور كثيف وفاعل للّسانيات الحديثة بمختلف فروعها. وقد اتّجهت الدراسات اللسانية المغربية المعاصرة إلى بحث الظواهر الاســتعمالية والإنجازية (Performative) للغة متجاوزة الجوانب الشكلية والــصورية* إلى معالجــة أبعادها التداولية؛ وقد أقبل المغربيون على تتبع هذا الدرس الجديد وفحص ما يُنادي به من عُدَّة معرفية وآليات تحليلية للنص الأدبي.

و قد أوضَحَت المقاربة التداولية أدبيةَ الخطاب وفنيتَه مُميطةً اللثام عن أسراره وخــصوبته فزحزحت يقين النظريات البنيوية والوظيفية، وذلك لضيق مفاهيمهــا وعُقــم جــداولها وإفراط اختزالها، وكشفت عن أسرار التَّنغيم ورمزية الــدلائل وتفاعــل الــملفوظات (Les énoncés) المجازية مع فهم المتلقي وتأويله[1]، والاستراتيجيات النصية الــتي ينتقيهــا المُرسِل بغية تركيب النسيج الأدبي.

لقد استثمرت المدارس النقدية الحديثة وخاصة في المغرب الأقصى التَّطورات الحاصــلة في دراسة الجملة اللسانية بمستوياتها التركيبية والصوتية والدلالية. فقد تجاوزت الدراســات

اللسانية الحديثة، من دي سوسير و بلومفيد إلى تشومسكي، دراسة "المعنى" في الجملة بسبب عدم إمكانية إخضاعه للدراسة العلمية[2] الموضوعية كباقي العناصر الشكلية التركيبية للجملة.

نستشفّ من ذلك أن موضوع التداولية ليس مستقلا عن اللسانيات[3]، أي دراسة المعنى التواصلي أو معنى المرسِل في كيفية قدرته على إفهام المرسَل إليه بدرجة تتجاوز معنى ما قاله؛ فالتداولية "علم جديد للتواصل الإنساني يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال ويتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي"[4] ومن هنا أتت التداولية باهتمام بارز لدراسة المعنى وهو في محيط القول أو سياق الكلام.

أحدث ظهور التداولية تغييرًا كبيرًا في ميدان النقد الأدبي؛ ذلك أن التداولية تدعو إلى تغيير النظرة إلى النصوص؛ أي تحويل نظرة البنيوية التي ترى النص بنية مبتورة عن الفعل الملفوظي[5]، إلى نظرتها التي تدعو إلى دراسة النص في علاقته مع النشاط الملفوظي (الكلام).

ويُمكن حصر العناصر التي يهتم بها المنظرون للتداولية في: المرسِل وقصده، والمتلقي، والرسالة، والسياق، ثم أفعال اللغة[6]. ففي تحليل تداولي لخطاب أدبي وجب على القارئ الناقد العكوف على "تأويل العناصر التي ترد في خطاب ما، ومن الضروري أن نعرف من هو المتكلم، ومن هو المستمع، وزمان ومكان إنتاج الخطاب"[7]؛ أي الإحاطة بظروف إنتاج الخطاب الأدبي والتعرف على سياق تلقيه والعكوف على دراسة معتقدات المتكلم ومقاصده، وشخصيته وتكوينه الثقافي ومن يُشارك في الحدث الخطابي، والمعرفة المشتركة بين المتخاطبين والوقائع الخارجية ومن بينها الظروف المكانية والزمنية، والعلاقات الاجتماعية بين الأطراف.

و هذا الثّراء المعرفي للسانيات التداولية جعل من بعض نقاد المغرب الأقصى ومفكريه البارزين يتبنّون هذه المقاربة في قراءتهم للخطابات الأدبية والإعلامية والسياسية وغيرها. وقد استند بعضهم[8] إلى العلوم المعرفية التي ترفد التداولية من مشاربها، وتستعير تقنياتها التحليلية ونتائجها المقدمة في التخطيط الذهني وآليات الاستقبال والفهم والتأويل للخطاب اليومي أو التخييلي. من هنا نسعى في هذا المقال إلى تقصي البعد المعرفي والتداولي في النقد النصي في المغرب الأقصى متطرقين إلى بعض النماذج التي استقبلت المعطيات المعرفية والتداولية التي يمكن الاعتماد عليها كتقنيات جديرة بتحليل النصوص الأدبية.

أوليات حول ماهية العلوم المعرفية:

تبحث النزعة المعرفية[9] في طبيعة المعرفة ومما تتألف، و تندرج في إطار المقاربات الجديدة لفهم ميكانيزمات الفكر ووظائف المعرفة، ذلك أن النصف الثاني من القرن العشرين شهد اهتماما كبيرا ومتزايدا بالعمليات المعرفية[10]، كما شكّلت مصطلحات مثل الإدراك الحسي والتذكر والاستدلال وحل المشكلات.

تبحث العلوم المعرفية عن تفسيرات لقدرة العقل الإنساني ونشاط الدماغ واشتغاله[11]،كما أنها تبحث كذلك عن وصف منهجي للسيرورات العقلية العاملة على مستوى الأنظمة الحية وكذلك دراسة الآليات العصبية المنظمة والفاعلة على مستوى الدماغ والتعبير عن هذه الأوصاف المجردة بصيغ البنية والوظيفة والمضمون.

وتقيم التداولية روابطًا بين اللغة والإدراك عن طريق العلوم المعرفية، لدراسة الآليات المعرفية (المركزية) التي هي أصل معالجة الملفوظات وفهمها. إذاً تبحث كل من العلوم المعرفية والمقاربة التداولية عن إجابة لتساؤلات من قبيل: كيف أننا قادرون على معرفة ما نعرفُه؟ وما هي البنيات الإدراكية التي تجعل من المعارف متداولة بيننا؟ وما هي حدود

وقدرات المعرفة وميكانيزمات العملية الإدراكية؟ وكيف يشتغل الذهن؟ نحو كيف يستقبل ويُرسِل؟ وكيف يُرتِّب؟ وكيف يستنتج؟[12]

الحقول المعرفية التي يستند إليها النقد النصي التداولي:

تنقسم العلوم المعرفية إلى مجموعات رئيسية[13]؛ لكنّنا قُمنا بعرض مفاهيم أبرز الحقول المعرفية المؤسِّسَة للتداولية: وهي الذكاء الاصطناعي وعلم النفس المعرفي واللسانيات المعرفية والعلوم العصبية.

4-1 - الذكاء الاصطناعي (L'intelligence artificielle): هو قدرة الآلة على تنفيذ عمليات تعتبر ذكية كالتعرف على الأشكال، والتعلم، وأخذ القرار[14]. هناك مدرستين: إحداهما تعتبره علما معرفيا هدفه استيعاب واستنساخ ميكانيزمات اكتساب المعارف والفهم، والأخرى ترى أنه فرع من المعلوميات يستثمر إمكانيات الواقع لابتكار أحداث مصطنعة.

4-2- علم النفس المعرفي (La psychologie cognitive): هو فرع من علم النفس الذي يدرس المعرفة ويعالج الميكانيزمات العقلية وبالتالي أنشطة الدماغ. إنه يرتكز على ملاحظة سلوك الأفراد في محاولة للكشف عن استعمال الصور العقلية وتعيين العوامل التي تؤثر في هذا الاستعمال. منذ عدة سنوات شكلت مقاربة معالجة المعلومات الأفق الكبير لعلم النفس المعرفي التي تعتبر التطور العقلي متكونا من تعاقب عدة مراحل[15]. يقول تيبيرجيان: "يعتبر علم النفس المعرفي الفرد كجهاز لمعالجة المعلومات، حيث يحول المعلومات من طبيعة فيزيائية إلى معلومات من طبيعة عقلية أو تمثلية"[16].

4-3- اللسانيات المعرفية (La linguistique cognitive): إذا كان اليوم معظم علماء النفس يعتقدون أن الفكر واللغة ينسجان علاقات وثيقة، فيجب على اللسانيات المعرفية

أن تلتحق بحقل العلوم المعرفية؛ فهي تشترك اليوم مع العلوم المعرفية في عدة نقاط ميدانيـــة متنوعة؛ كعلم النفس اللساني، وعلم الدلالة، واللسانيات العصبية، والفلـــسفة التحليليـــة للكلام. وهذا اللقاء مع اللسانيات يمر عبر قنوات:

- مشاكل الترجمة الأوتوماتيكية للنصوص إلى لغات أجنبية من طرف بـــرامج الـــذكاء الاصطناعي، استلزمت تدخلها ومساعدتها.

- لا يمكن تصور انبثاق حركة العلوم المعرفية بدون إسهام قواعد العبـــارات اللغويـــة في اللسانيات التوليدية (linguistique générative)؛ فنظريات اللغـــوي الأمريكـــي نـــوام شومسكي حول قواعد العبارة في النحو التوليدي (générative grammaire)، كان لها تأثير حاسم في التقارب بين اللسانيات والعلوم المعرفية الأخـــرى[17]. ذلـــك أن تكـــوين وتأليف قواعد العبارة تسعى إلى إبراز البنيات النحوية العميقة والغامضة للكلام؛ فيتمّ - انطلاقا من ذلك - بناء الخطابات الخاصة.

4-4- العلوم العصبية (Sciences neurologiques): تُكوِّن العلوم العصبية فسيفساءً من الميادين المتشابكة (البيولوجيا العصبية، والفيزيولوجيا العصبية، وعلم الغدد العصبي، وعلم التشريح العصبي...)[18] التي تدرس الأسس البيولوجية والفيزيولوجية والتشريحية للـــدماغ حيث عرفت تطورا كبيرا خلال العشرين سنة الأخيرة.

لقد شهد علم الأعصاب المعرفي نشأته الأولى في الثمانينات التي اتسمت، مثلا، بظهـــور المدرسة الأولى الصيفية لعلم الأعصاب المعرفي في جامعة هارفارد، وتأسيس مجلـــة علـــم الأعصاب المعرفي[19] (Journal of cognitive Neuroscience chez MIT Press) .

وقد ساهم عاملان اثنان في تطور هذا العلم الجديد؛ ارتبط العامل الأول بالتقدم الهائـــل الذي عرفته المعلوماتية؛ حيث تمكّن العديد من الباحثين من التوفر على حواسب في غايـــة

الدقة مكّنتهم من تقليد ومحاكاة الأنشطة المعرفية بواسطة شبكة من الخلايا العصبية الاصطناعية[20]. كما ساهمت هذه الأنظمة ذات التقنيات العالية، في تطور أدوات المصورة الدماغية (imagerie cérébrale)[21].

تأثير العلوم المعرفية في النقد النصي التداولي في المغرب الأقصى:

تفترض النزعة المعرفية أنّ الحياة النفسية مؤلّفة من عدد معين من العمليات المنطقية للمراقبة، والتنظيم والضبط والحساب[22] تماما مثل الحاسوب*. فالذهن تبعا لذلك، مبني على عدد من التمثّلات الرمزية، يرتبها وينظمها، ويدبرها ويعالجها وذلك مثل ما يفعل الحاسوب: معالجة المعطيات ثم تنفيذ العمليات.

تُحاول العلوم المعرفية تقديم بيانات عن سير نظام الدماغ مبرزة الدور الكبير للتمثلات، التي يمتلكها الشخص في حالة معينة، والتي على إثرها تحصل المعالجة[23].

إنّ الشخص كفاعل معرفي (agent cognitif) الذي يُعالج، بطريقة آلية تلقائية أو مضبوطة، معلومات رمزية ذات طبيعة مختلفة (لفظية، رقمية، رمزية) يصير قابلا لتقديم استدلالات واستنتاجات[24]، وبلورة خطط عمل مع ما يرافق ذلك من إمكانية تصميمها ومراقبة تنفيذها.

فنظرية الذكاء الاصطناعي نابعة من فلسفة تجريدية رياضية تُراعي قبل كل شيء الآلة "للكشف عن آليات الإنسان البيولوجية واللسانية ليمكن التنبؤ بغيب سلوكه أو خلقه"[25]. و تُقدِّم الفرضيات المعرفية نفسها كمجال خصب لدراسة تطور الذكاء عند الطفل وطرق التعلم؛ فهذه التمثلات تسمح بالانتقال من المستوى الدلالي للغة إلى المستوى البيوكيميائي (أي ما يرتبط بالخلايا العصبية) أو بعبارة أخرى من الذهن إلى

الدماغ . وهذا هو بالضبط الموقف المعرفاني (cognitiviste) الذي يتحدد بحساب التمثُّلات الرمزية[26].

وقد تمّ إدخال هذه المفاهيم الجديدة إلى ساحة النقد الأدبي في المغرب الأقصى لتحليل الخطابات تداوليا؛ إذْ أصبحت من خلال مخططات التخاطب والفهم والتأويل تُصاغ القراءات النقدية للنصوص، وقد مثّلت هذه العلوم المعرفية التي استساغها النقد التداولي بالمغرب نظريات منوعة منها: نظرية الأطر*، ونظرية المدونات** ونظرية الخطاطات*** والذكاء الاصطناعي وغيرها[27].

فالإضافة إلى المقاربات المنطقية واللسانية والبلاغية، ظهرت مقاربات أخرى للخطاب منها المعرفية التي اقترحت تصورات جديدة لتحليل الخطاب والعملية الحوارية، يقول حسّان الباهي: "من هذا المنطلق وجّه العديد من الدارسين أبحاثهم إلى مجالات تهم عملية الميدان النفسي والاجتماعي فيما يمكن أن نُسميه بعلم النفس المعرفي واللسانيات الاجتماعية التي استمدّت أصولها من مباحث مثل اللسانيات والمنطق"[28].

وأبرز الوجه المغربية في هذا الشأن: محمد مفتاح[29] وعبد اللطيف محفوظ[30] وعلي آيت أوشان ومحمد الماكري ومحمد سرّو، وإسماعيل شكري وطائع الحداوي وغيرهم.

يتحدّث محمد مفتاح عن أهمية العلوم المعرفية ومنها الذكاء الاصطناعي في تحليل النصوص في قوله: " تُركّز هذه النظريات المعرفية على بنيات ثابتة معطاة، وتتالٍ، وكلية، واختزان، وسحب تجعلنا نتساءل: ألا يمكن للمتلقي أن يتعرف على الإطار إلا إذا كان على علم سابق به". فإذا لم يكن له علم، فما العمل إذن؟ لهذا ننظر إلى إجابات اللسانيات التحسيبية وخصوصا جانبها التواصلي (Computing communication function)"[31].

فنظرية الإطار مثلا –كما يرى **مفتاح**[32]– نموذج ذهني نقصد به المعارف والمحفوظات التي تعلّمها المبدع وخزّنها في ذاكرته، وسحب منها ما احتاج إليه.

إذن، من الواضح أنّ مقاربة معالجة المعلومات التي تنتمي لميدان المعلوميات قدّمت خدمة جليلة ومنفعة كبيرة على سبيل فهم الفكر؛ وذلك ما كان ممكنا لولا حصول ثورة في طريقة دراسة الفكر والنقد. فعبد اللطيف محفوظ جاء بمنهجية تداوليّة في تحليل النص سيميائيا تقتضي "سيرورة ذكاء علمي يقوم على آليات الاستنتاج المنطقي، الواجب تطبيقها على النص الإظهاري الذي يشكل المُعطى المادي الوحيد (أو موضوع التلقي الفعلي)"[33].

إنها قفزة إبستيمولوجية بلا شَكٍّ، وتصوُّرها يبدو مرتبطا بمحاولات تقعيد الاستنباط الرياضي لنشاط الدماغ. لقد بات ينظر لهذا الأخير وكأنه آلة عصبية (machine neuronale)خاضعة لقواعد منطقية. علم التحكم cybernétique المنسوب لوينير Wiener وآلة تورينك Turing ومنطق بول Boole كلها عناصر أساسية كانت وراء توجيه الاهتمام بآلة ذكية طبيعيا: الدماغ وصنع آلة ذكية اصطناعيا: الحاسوب. وقد شكّل التقارب والتداخل بين هاتين الآلتين ميدانا خصبا لتعميق الأبحاث في هذا المجال[34]؛ حيث يعتبر الدماغ على غرار الحاسوب، جهازا معقدا لمعالجة المعلومات ويشتغل بفضل أنظمة للتخزين: الذاكرة وعمليات التحليل المنطقي مثل البحث والتحقق من المقولات.

غير أن هذه العلوم المعرفية لا تؤدي إلى نتائج سهلة المِراس في قراءة النص، يقول **مفتاح** في هذا الشأن: "مقاربة الذكاء الاصطناعي تؤدي إلى عدة إشكالات...إذا كان المبدع ينطلق من نواة معينة يقوم بتشعيبها إلى عُقد أو إلى تمفصلات، يجمد بعضها ويشعب بعضا آخر منها، وإذا كان المحلل يتابع ما قام به المبدع محاولا تبيان ما فعله من

تمفصلات وكاشفا عن آلياتها التي تمت بها، لأن سؤالا قد يُطرَح: إذا كانت تنمية النواة بهذا الشكل، فلماذا يختلف تشعيب "مبدع" عن "مبدع" وتأويل محلل عن محلل آخر؟[35] أو ليس من المتعيّن أن يخضع "المبدع" والمحلل لقانون عام، وأن يسيروا في طريق واحد كأنهما حواسيب مما يجعل للبشرية إبداعا آليا وفهما آليا، مما يوجد الفهم ويوفر المجهود وينبذ الخلافات؟!".

إستراتيجية المؤول وبعدها المعرفي- التداولي في تحليل النص الأدبي:

تتميز إستراتيجية المؤول باعتمادها أساسا على نظرية المعرفة المشتركة؛ حيث تؤدي إلى التراجع من النتائج إلى المقدمات في تسلسلٍ لا ينتهي.

وتفترض هذه الإستراتيجية - حسب اللساني **دينيت** (Dennett) - أن الأفراد الذين نُواجههم عقلانيون؛ أي يمكن "أن نؤوِّل سلوكَهم الذي نتوقَّعه إلى حد ما، اعتمادا على الاعتقادات والرغبات والمقاصد التي ننسبها إليهم بملاحظة سلوكهم السابق"[36]؛ أي أننا ننسب حالات ذهنية إلى الآخرين حين نتفاعل معهم.

و تُعالج البحوث المؤلّفة في علم النفس المعرفي و الذكاء الاصطناعي هذا المفهوم وتعرضه، مثلما فعل "منسكي" وغيره في تعريف هذا المفهوم؛ "حيث يرى المرء اختلافا في الجزئيات واتفاقا في الجوهر، فهو تنظيم للمعرفة ضمن مواضيع مثالية (Prototypes) وأحداث قالبية (Stereotypes) ملائمة لأوضاع خاصة. ومعنى هذا أنَّ الذاكرة الإنسانية تحتوي على أنواع من المعارف المنظمة في شكل بنيات، وحينما يواجه الإنسان سلوك أو حدث أو يريد أن يقوم به أو يفعله فإنه يستمد من مخزون ذاكرته أحد أجزاء البنية لتأويل ما وقع أو لإنجاز ما يريد[37].

و على المتلقي أن يمتلك كفاءات تداولية تمكنه من فهم مقاصد مرسله التي يُريد إبلاغها له؛ فمن المؤكّد أن الكلمات الأساسية التي نعتمد عليها في تفكيرنا أكبر الكلمات حظا من هذه الخاصية.

وربما كانت كفاءة القراءة تعتمد – في المحل الأول – على حُسن إدراك ما تصنعه هذه الكلمات، فليس لدينا افتراضات محددة قبلية نعمل من خلالها. إننا نتعامل مع افتراضات متجددة أو اعتماد متبادَل بين معان نسميها لأهميتها باسم الكلمات المفاتيح[38].

ففي كل تأويل ثمة اختيار "إستراتيجية المؤول"، وثمة موقف ضمني من النص يتخذه المؤول، ولذلك ينبغي أن لا يُنظر إلى المعنى المباشر للنصوص بقدر ما ننظر إلى المنطق الخفي الذي يقف وراء التأويلات ونكشف عن "منطق ما لم ينطق به" المتأولون[39].

يشرح **مفتاح** استراتيجيات المؤول؛ الذي يستضيف النص و يعقد معه صلات حميمة ليتعاونا معا على إنجاز مهمة الفهم والتأويل والنقد، ومعنى هذا أن المتلقي لا يذهب إلى عالم النص، وهو عبارة عن صحيفة بيضاء، وإنما تكون له معلومات مختزَنة في ذاكرته تسمح له بالتعميم اعتمادا على مبدأ النظير، كما تسمح له بإعادة الرأي في قياسه وتصحيح بعض أجزئه، كما أن النص بخصائصه الظاهرة هو الذي يتيح للمتلقي القيام بعمليات المقايسة والتصنيف والتماس الخصائص النوعية[40].

يلجأ المحلل إلى استراتيجيات التأويل نتيجة لطبيعة النص المفتوح القابل لأن يمنح تأويلات عديدة، ولذلك حاول **مفتاح** إعطاءه تأويلا، لأن مثل هذا التأويل الراجح أو "النهائي" يستلزم وضع فرض استكشافي يحقق بنصوص الشاعر السابقة أو اللاحقة، وبإدراك عميق لمقتضيات الأحوال[41].

نظرية الإطار (Frams) ضمن استراتجيات الـمؤول:

تنتمي نظرية الأطر (Frams) إلى حظيرة علم النفس المعرفي المعاصر ومنها: المـدونات (Scripts) والخطاطات (Shemata) والسيناريوهات (Sénarios)، ومعنى هذه المفاهيم "أن الكاتب أو المتلقي يعتمد على كتابته أو تلقيه على معرفة سـابقة مختزنـة في الذاكرة، يُثير منها عند الضرورة بعض العناصر ليعبر بها عما يُصادفه أو يفك بها شفرة ما يقرؤه. كما أن تلك المعرفة الخلفية وما تولده من أفق الانتظار هي التي تساعد على بنـاء الأطر إلحاقا للنظير بالنظير، وإذا ما استعصى ذلك الإلحاق، فإن القارئ يخلق إطارا جديدا في نطاق مفاهيم عمل مفهومية جديدة"[42].

يُعرّف مفتاح الإطار بأنه"تنظيم ضمن مواضيع مثالية وأحداث قالبية ملائمـة لأوضـاع خاصة"، ويعني بهذا الكلام أن الذاكرة الإنسانية تحتوي على أنواع من المعارف المنظمة في شكل بنيات[43]. ويضرب مثالا توضيحيا لذلك:

الـمدرسة: فعندما تُذكر تتبادر إلى الأذهان أقسام المدرسة والمعلم والتلاميذ والمـدير..، وعندما يُذكر المستشفى: يتداعى إلى الذهن الطبيب والممرض والمرضى والدواء..

و يُمثّل مفتاح لنظرية الإطار المعرفية في ميدان تحليل الخطاب؛ فحينما تُـذكَر القـصيدة المدحية النموذجية تتبادر إلى الأذهان الخطاطة التي ذكرها ابن قتيبة أو ما يقـرب منـها، وحينما تذكر قصيدة الاستنفار إلى الجهاد يحصل في ذهن القـارئ المتمـرس الـشاعر والممدوح، والتذكير بما وقع للأندلس من مآسٍ شاملة للطبيعة، وللإنسان وللدين، والتنبيه إلى ما فعله المسيحيون وما ينتظرهم من عِقاب، ثم دعوة الشاعر الممدوح إلى جمع العـدد والعدّة لإعزاز الإسلام وإذلال الكفر، وقد ينهي الشاعر قصيدته بالثناء على نفسه وتنبيـه الممدوح إلى قيمة شعره[44].

وبذلك فقد وظّف مفهوم الإطار في الذكاء الاصطناعي لفهم اللغة ومعالجتها لما تبين من قصور نظرية الشبكة الدلالية ونظرية منطق المحمولات. وقد حلّل **مفتاح** نظرية الأطر إلى مكونات وأهمها: العقد والروابط والشغالون، فالمستوى الأعلى أو العقدة العليا تتولد عنها عقد صغرى لها نهايات أو فضاءات فارغة (Slot)، ويمكن أن تملأ هذه الفضاءات ببعض البنيات أو التّعابير تُدعى المائلة (Filler) ، ويتشعّب عن هذه الأخيرة عقد جديدة، يقول مفتاح: "إن الإطار (العقد العليا) قد يتشعب إلى أطر فرعية (عقد فرعية) بعضها منجب وبعضها عقيم"[45].

الأمثلة التوضيحية لنظرية الإطار:

قد يجد الإنسان إطارا فرعيا ويريد أن يربطه بإطار عام، وليكن الإطار الفرعي هو "كرسي"؛ فالكرسي ينتمي إلى جنس أثاث المنزل؛ لأنه يحتوي على مقومات ما يجمعه بالأثاث: فإذا ما بحثنا عن معلومات في الكرسي و لم نجدها في إطاره، فإننا نبحث عنها في إطار الأثاث..إن الكرسي يرث خصائص وصفات موجودة في إطار الأثاث، كما أنه يجب أن تعزى كل الصفات والخصائص إلى الكرسي الذي من شأنه أن يمتلكها إلى أن يثبت العكس، وعملية العزو هذه هي ما يدعى الاستدلال بالغياب (Inference by Default)، كما أن آلية أخرى تقوم بدور بيِّن في الربط بين الأطر (العُقد) وتنشيطها حينما تدعو الحاجة، وهذه الآلية هي الشغالون (Demons) وتنطلق عملية الربط والتنشيط بـ "إذا ما كان كذا فإنه يكون كذا أو يحتاج إلى كذا أو يُضاف كذا أو ينقل كذا..."[46].

والمثال الذي ضربه **مفتاح** حول نظرية الأطر يوضح علاقة الإطار العام المجرد (Type) بالإطار المتحقق أو الواقعي (Token)، ويأتي مفتاح بمثال آخر[47]:

إطار ← دار (جنس(قيمة (بناء))).

فضاء ← (مطبخ (قيمة (معاصر))).

فضاء ← (بيت النوم (قيمة (معاصر))).

فضاء ← (بيت الاستقبال (قيمة (تقليدي))).

يستنتج أن "الإطار العام الأم" هو الدار وتحته تأتي ثلاث فضاءات ملئت بعناصر مقومة: مطبخ + بيت النوم + بيت الاستقبال.

ويمكن أن تُشعَّب هذه الأطر فيُضاف إليها بعض الشغالين كقولنا: "إذا كانت الدار مغربية فإنها تحتوي على بيت استقبال تقليدي، وإذا كانت الأسرة كبيرة فقد يحتاج إلى توسيع الدار، والإطار الممثل به نموذج (Type) يرث جميع خصائص وصفات الدار النموذجية عن طريق الاستدلال بالغياب حتى يثبت العكس التحري والتقصي"[48].

تطبيق نظرية الإطار أو المعرفة الخلفية على شعر ابن زيدون:

يرى **مفتاح** أن شعر ابن زيدون لا يُفهَم إلا إذا وضع في إطار عام، وإطار خاص؛ فالإطار العام هو الغزل العربي، وأما الإطار الخاص فهو الغزل الأندلسي في عصر ملوك الطوائف.

أ- الإطار العام: وقد تحدّثت عنه الكتب التراثية التي تناولت الحب، ومكونات هذا الإطار هي[49]:

المُحبّ: وصفاته هي: الحزن الدائم، والبكاء، والوفاء، والتشوق، والطاعة العمياء، والعشق الدائم والتذلل والتحمل، وعدم اليأس والسقم والسهر والهم والغم والأنين.

المحبوب: وصفاته: التمنُّع والتجنّي والهجران.

الـمُساعدات: الرسائل والرسول واللقيا والنظر..

الـمعوقات: العُذّال، والواشون، والأعداء والرقباء..

ب- الإطار الخاص: وهو يدور حول ماهية الحب وأغراضه ووسائل الاتصال وتعزيزه وموانعه، وهو ثابت، أمّا الذي يتغير فيه المصاحبات التي نجدها لدى هذا الشاعر أو ذاك كأن يحب شاعر ما محبوبة سمراء وآخر يريدها شقراء...

يُفهم من هذا التوظيف لنظرية الأطر المعرفية على شعر ابن زيدون إقرار من محمد مفتاح بدور الذاكرة في إنتاج الخطاب، لكنه لا ينفي أن الأخذ الحرفي لهذه النظريات المعرفية وإسقاطها على نصوص وخطابات قد تلحقه مشكلات، فهذا الإسقاط قد "يجعل العمل الأدبي يشقق الكلام، واللغة تتناسل من اللغة..وبناء على هذا، فإن الدعوة التي تقول بالاكتفاء لدراسة بعض الشعراء وخصوصا المجيدين منهم تصبح وجيهة..المتنبي يجزئ عن دراسة ابن درّاج والبحتري يغني عن ابن زيدون..إن الشعر الأندلسي، إذن هو تحصيل حاصل من الشعر المشرقي"[50].

يهدف النقاد من وراء استراتيجيات المؤول إلى ملء أنواع الفراغ الموجود في النص، أو لربط العلائق بين بنيته، ويستعمل المحلل في ذلك مفاهيم إجرائية متعددة منها: الاستدلال بالغياب أو (الاستصحاب)، والاستدلال العادي، والفرض الاستكشافي، فحينما يسمع المرء كلمة "إنسان" فإنه يفترض أنه له رجلين وعينين ويدين ورأسا، وكل ما يتكون منه الإنسان من جوارح ومؤهلات إلى أن يثبت عكس ما يفترضه[51].

ويقول **مفتاح** في موضع آخر مبرّرا سبب اللجوء إلى استراتيجيات التأويل عند القارئ في ملئه الفراغات والبياضات النصية أنّ "المبدع لا يستطيع أن يُصرّح ببعض الألفاظ

أو ببعض التعابير، وقد لا يرغب في ذلك غضاً من شأنها، ونجد هذا في بعض الأشعار القديمة أو الحديثة ذات النزعة السياسية أو الدينية"[52].

أي يبث الناص مؤشرات وأيقونات غير لغوية، وحينئذ فإن المحلل يخرج من السيمياء اللغوية إلى "السيميوطيقا"؛ فقد ينوب عن التعبير اللغوي أيقون (قف)، أو رجلا مقطوع الرأس أو واقفا على رجل واحدة، أو كرسيا مزخرفا...أو أي شيء آخر...

نستشف من خلال عرضنا لأهم مظاهر تأثير العلوم المعرفية والتداولية في النقد النصي في المغرب الأقصى أن التداولية هناك أحدثت تغييرًا كبيرًا في ميدان النقد الأدبي؛ حيث تدعو هذه المقاربة إلى تغيير النظرة التحليلية البالية إلى النصوص؛ أي تحويل نظرة البنيوية التي ترى النص بنية مبتورة عن الفعل الملفوظي، إلى نظرتها التي تدعو إلى دراسة النص في علاقته مع النشاط الملفوظي وسياقاته وتبحث بشجاعة وتميز وبآليات تحليلية جديدة بالكامل عن ميكانيزمات الفهم والتأويل للنص الأدبي.

الهوامش:

* - تُعدُّ الصُّورية (*Le formalisme*) مهادا ومرحلة أولى لظهور التداولية في المغرب الأقصى؛ حيث مثلت مرجعا أساسيا للأبحاث والدراسات العلمية المتميزة بالدقة والعلمية. يُنظر: حسان الباهي، "اللغة والمنطق: بحث في المفارقات"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، وبيروت، لبنان، ودار الأمان للنشر، الرباط، المغرب، ط1، 2000، ص: 11.

[1] - يُنظر: محمد مفتاح، "تحليل الخطاب الشعري: إستراتيجية التناص"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المملكة المغربية، و بيروت، لبنان، ط3، 1992. ص: 168.

[2] - Voir: Jacques MOESCHLER & Antoine AUCHLIN, Introduction à la linguistique contemporaine, Armand colin, Paris, 2000, pp: 18-20.

[3] ـ لقد كان الميل في الستينيات نحو تعريف التداولية كقمامة اللسانيات وتنحصر مهمتها في حل كل المشاكل والقضايا الهامشية التي ترغب اللسانيات في معالجتها.

[4] ـ مسعود صحراوي، "التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي "، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2005.، ص: 17.

[5] - Voir: Jacques MOESCHLER & Antoine AUCHLIN, Introduction à la linguistique contemporaine, p. 20.

[6] ـ يُنظر: نعمان بوقره، "التصور التداولي للخطاب اللساني"، مجلة الرافد، الإمارات العربية المتحدة، يناير، 2006، ص: 83 .

[7] ـ محمد خطابي، "لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب"، بيروت، المركز الثقافي، ط1، 1991، ص: 297 .

[8] ـ من أمثال محمد خطابي، محمد الماكري، محمد مفتاح، إدريس بلمليح وغيرهم.

[9] ـ ينحدر مصطلح cognitif من الكلمة اللاتينية cognosco، ويفيد في معناه الواسع كل ما له علاقة بالمعرفة connaissance: من الإدراك إلى الذكاء دون إغفال اللغة والذاكرة والتعلم. **يُنظر:** محمد سرو، "النزعة المعرفانية Cognitivisme"، مجلة فكر ونقد، ع 97.

[10] ـ يُنظر: فان دايك، "النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي"، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، وبيروت، لبنان، ط1، 2000، ص ص: 214 و215.

[11] - Look: David Lee, "*Cognitive Linguistics: an introduction*", Oxford University Press 2001,pp: .2 &3.

[12] ـ يُنظر: عبد السلام عشير، "إشكالات التواصل والحجاج:مقاربة تداولية معرفية"، بحث مقدم لنيل دكتوراه الدولة في اللسانيات التداولية، إشراف: أ. د: محمد الشاد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، ظهر المهراز، المملكة المغربية، 1999 – 2000، ص: 25.

[13] – كل واحدة منها تتضمن برنامجا اشتغاليا معينا، ويُدرج الاستدلال أو العمليات المعرفية العُليا ضمن اهتمامات الفلسفة وعلم النفس واللسانيات، أما العمليات الحية والإدراكية أو العمليات المعرفية الدّنيا فهي من مجموع أعمال العلوم العصبية والفيزياء والرياضيات وما ضمّ الآفاق الصورية والاشتغال التطبيقي على قدرات الآلة والمواد التكنولوجية فهو من اختصاص الدّرس المعلوماتي والذكاء الاصطناعي.

[14] - Voir: La Vallée I., "La Pensée Artificielle ?", La pensée 282, pp : 31-32.

[15] - Voir: Fortin C. Rousseau R., "Psychologie Cognitive, Une Approche de Traitement de L'information", Télé Université, Presse de l'Université du Québec, 1992, pp : 3-4.

[16] - Weinberg A., "Des Sciences du Cerveau aux Sciences de la Pensée : état des lieux", Sciences Humaines, N°17, Mai 1992, p :19.

[17] – يُنظر: فان دايك، "النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي"، ترجمة: عبد القادر قنيني، ص: 214.

[18] – يُنظر: محمد سرو، "النزعة المعرفانية Cognitivisme"، مجلة فكر ونقد، مجلة ثقافية شهرية، دار النشر المغربية، العدد 97. منشور على موقع المفكر محمد عابد الجابري في الانترنيت: www.aljabriabed.net/fikrwanakd/العدد 97.

[19] - Koeing O., "Vocabulaire des Sciences Cognitives", PUF, 1998, p : 6.

[20] – نتيجة لذلك، شهد ميدان معرفة العلاقات الفيزيائية والكيميائية بين الخلايا العصبية انطلاقة باهرة، كما تمكن العلماء من تحديد التمركز الدقيق لمختلف الوظائف المعرفية؛ فنحن نعرف اليوم نسبيا المراكز الدماغية المسؤولة عن البصر والكلام والسمع.

[21] – يُنظر: محمد سرو، "النزعة المعرفانية Cognitivisme"، مجلة فكر ونقد، العدد 97.

[22] – يُنظر: سامي أدهم، "تشميل ما بعد الحداثة: الفلسفة الصنعة، الآلة المفكرة، المعلوماتية، الذكاء الاصطناعي"، دار الكتابات، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص: 56.

* – بالغت العلوم المعرفية في التقريب بين ذاكرة الإنسان وذاكرة الحاسوب، لتجمع في دراسات خاصة الدراسات اللسانية من جهة واللسانيات الحاسوبية من جهة أخرى.

[23]- Voir: Jacques MOESCHLER & Antoine AUCHLIN, Introduction à la linguistique contemporaine, p p: 29.

[24]- يُنظر: سامي أدهم، المرجع السابق، ص ص: 57 و58.

[25] - محمد مفتاح، "دينامية النص: تنظير وإنجاز"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، وبيروت، لبنان، ط3، 2006، ص: 37.

[26] - يُنظر: محمد سرو، "النزعة المعرفانية Cognitivisme"، مجلة "فكر ونقد"، مرجع سابق.

* - الأطُر: "هي شبكة من العلاقات يكون مستواها النموذجي الأولي مطابقا لأحداث ثابتة (Stereotyped) متعلقة بأوضاع نموذجية، وشبكة دنيا هي تحقُّقات لتلك الشبكة، وبتعبير آخر، فإن الأطر تتكون من عناصر ضرورية (Slot)، وعناصر اختيارية مالئة (Filler) لتلك العناصر الضرورية المجردة". محمد مفتاح، "دينامية النص": ص: 26، و يُنظر: "مجهول البيان"، ص: 68.

** - المُدوّنات: "هي متتالية ثابتة من الأحداث النموذجية التي تصف وضعا، أي تتالي العلاقات الزمانية والمكانية وانتظامها". محمد مفتاح، "دينامية النص"، ص: 26. و يُنظر: "مجهول البيان"، ص: 70.

*** - الخُطاطات: تشبه المدونات إلى حدٍّ بعيد؛ إذ كل منهما يعني التتابع والترابط.

[27] - يُنظر: عبد الحق بلعابد، "دينامية النص: بين عتبات التنظير وعلامات الإنجاز"، في كتاب: "محمد مفتاح: المشروع النقدي المفتوح"، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009، ص: 1985. ويُنظر: محمد مفتاح، "النص من القراءة إلى التنظير"، ص: 24.

[28] - حسان الباهي، "الحوار ومنهجية التفكير النقدي"، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2004، ص: 143.

[29] - يُنظر: محمد مفتاح، "مشكاة المفاهيم : النقد المعرفي"، ص ص: 30 و56.

[30] - يُنظر: عبد اللطيف محفوظ، "سيميائيات التظهير"، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009، ص: 18. و"آليات إنتاج النص الروائي: نحو تصور

سيميائي"، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص: 52.

[31] - "دينامية النص: تنظير وإنجاز"، ص: 27.

[32] - يُنظر: "النص من القراءة إلى التنظير"، ص: 10.

[33] - عبد اللطيف محفوظ، "سيميائيات التظهير"، ،ص: 13.

[34] - يُنظر: محمد سرو، "النزعة المعرفانية Cognitivisme"، مجلة فكر ونقد، العدد 97.

[35] - "النص: من القراءة إلى التنظير"، ص: 29.

[36] - المرجع نفسه، ص: 206.

[37] - يُنظر: محمد مفتاح، "مجهول البيان"، ص: 68.

[38] - يُنظر: مصطفى ناصف، "اللغة والتفسير والتواصل"، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد: 193، يناير، 1995، ص: 49 و 50.

[39] - يُنظر: علي حرب، "التأويل والحقيقة: قراءات تأويلية في الثقافة العربية"، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2007، ص: 191.

[40] - يُنظر: محمد مفتاح، "دينانية النص"، ص: 42.

[41] - يُنظر: محمد مفتاح، "النص: من القراءة إلى التنظير"، ص: 19.

[42] - "النص: من القراءة إلى التنظير"، ص: 33، ويُنظر: "دينامية النص"، ص: ص: 27 و28.

[43] - يُنظر: "المرجع نفسه، ص: 27.

[44] - يُنظر:المرجع نفسه، ص: 28.

[45] - محمد مفتاح، "مجهول البيان"، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1990، ص ص: 68 و69.

[46] - المرجع نفسه، ص: 69.

[47] - يُنظر: المرجع نفسه، ص ص: 69-70

48 ـ "مجهول البيان"، ص: 70.

49 ـ يُنظر: محمد مفتاح، "النص: من القراءة إلى التنظير"، ص: 34.

50 ـ "النص: من القراءة إلى التنظير"، ص: 35.

51 ـ يُنظر: المرجع نفسه، ص: 29.

52 ـ "دينامية النص"، ص: 58.

مكتبة البحث:

الكتب العربية والمترجمة:

1- أدهم، سامي، "تشميل ما بعد الحداثة: الفلسفة الصنعة، الآلة المفكرة، المعلوماتية، الذكاء الاصطناعي"، دار كتابات، بيروت، لبنان، ط1، 1998

2- الباهي، حسان، "الحوار ومنهجية التفكير النقدي"، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2004.

3- حرب، علي، "التأويل والحقيقة: قراءات تأويلية في الثقافة العربية"، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2007.

4- خطابي، محمد، "لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، وبيروت، لبنان، ط2، 2006.

5- دايك، فان، "النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي"، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، وبيروت، لبنان، ط1، 2000.

6- صحراوي، مسعود ، "التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي "، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2005.

7- عشير، عبد السلام، "إشكالات التواصل والحِجَاج: مقاربة تداولية معرفية"، بحث مقدم لنيل دكتوراه الدولة في اللسانيات التداولية، إشراف: أ. د: محمد الشاد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، ظهر المهراز، المملكة المغربية، 1999 – 2000.

8- محفوظ، عبد اللطيف، "سيميائيات التظهير"، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009

9- مجموعة من المؤلفين، "محمد مفتاح: المشروع النقدي المفتوح"، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009

10- مفتاح، محمد، "تحليل الخطاب الشعري: إستراتيجية التناص"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المملكة المغربية، و بيروت، لبنان، ط3، 1992.

11- مفتاح، محمد ، "دينامية النص: تنظير وإنجاز"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، وبيروت، لبنان، ط3، 2006

12- مفتاح، محمد، "مجهول البيان"، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1990.

13- ناصيف، مصطفى، "اللغة والتفسير والتواصل"، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد: 193، يناير، 1995.

المقالات:

14- بوقره، نعمان، "التصور التداولي للخطاب اللساني عند ابن خلدون"، مجلة الرافد، الإمارات العربية المتحدة، يناير، 2006.

15- سرّو، محمد، "النزعة المعرفانية Cognitivisme"، مجلة فكر ونقد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب، العدد 97. على موقع المفكر محمد عابد الجابري في الانترنيت: www.aljabriabed.net/fikrwanakd

الكتب باللغة الأجنبية:

16- David Lee, "Cognitive Linguistics: an introduction", Oxford University Press 2001

17- Fortin C. Rousseau R., "Psychologie Cognitive, Une Approche de Traitement de L'information", Télé Université, Presse de l'Université du Québec, 1992

18- Jacques MOESCHLER & Antoine AUCHLIN, Introduction à la linguistique contemporaine, Armand colin, Paris, 2000

19- Weinberg A., "Des Sciences du Cerveau aux Sciences de la Pensée : état des lieux", Sciences Humaines, N°17, Mai 1992